

أعادوا لنا الأمل بالكلمة !

بقلم ياسين فاجية

دائرة الضوء وهم محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد . بيد ان اشد هم مأساة كان سميح القاسم بسبب انه احد يساريي الوطن المحتل، بقي مدة من الزمن جسما غربيا لم تتمثله بوتقة « اليسار الاسرائيلي » ان صح ان نمة يسارا حقيقيا بهذا الوصف ، فكانت النتيجة ان الفسى نفسه منبوذا من ذلك اليسار ، مجلوبا الى التحقيق ، معذبا متهما من السلطة . ومن ادعاء اليسار انفسهم ، بالدوران « في اطار النظرة التقدمية » ! وبأن حقده القومي قد حجب عنه « رؤيا الافاق الرحبة امام شعب اسرائيل .. » (1) .

وبالفعل ، فان الحزب الشيوعي الاسرائيلي قد جابه هذه الروح القومية مجابهة قطعية ، وعلى اساس قومي مضاد ، وذلك بالبشر التام للجناح العربي من الحزب باعتباره ذا صبغة قومية غالبية .. لقد مر جيل تقريبا على هذه الاقلية داخل المعتقل الصهيوني .. وهي تبحث عن ايما وسيلة تصل كفاحها اليومي بالكفاح الاوسع للشعب العربي دون جدوى ، ودون امل . وعلى عكس مثال الاندلس ، الذي ربما كان الوحيد من نوعه في التاريخ العربي ، فان انسان هذه الاقلية ، لم يستطع ان يتبدل الى غيره ، انه هو نفسه العربي الفلسطيني ، انه مع يأسه الحاد من اي خلاص ياتيه من خارج الحدود . لا يتطلع رغم ذلك الا الى هذا الخلاص نفسه من خارج الحدود . وتلك هي الحلقة الفاسدة المستحيلة ، التي تدور فيها الاقلية الفلسطينية في الوطن المحتل . في المعتقل « اسرائيل » .

وليس اصدق من هذا القول ، وليس اشد شمولا منه في الانطباق على حالة سميح القاسم وحده اكثر من غيره . واكثر مرارة وحدة . وتلك هي مأساته الاساسية .

ذلك ان سميح القاسم ظل في كل شعره . اكثر التزاما بنظرته القومية الى مأساة شعبه من الشعراء الآخرين .. وكان هذا اشد وضوحا ونقاء في مجموعته الجديدة « ويكون ان ياتي طائر الرعد » الذي نحن بصددده والذي صودر من مكنتات « اسرائيل » بعد ايام من ظهوره . وقد تجاوزت سلطات الاحتلال قانون المطبوعات عندها الذي يمنع مصادرة اية منشورة مهما كان نوعها الا بعد مضي عام على الاقل من نشرها وتوزيعها .

وقبل صدور هذه المجموعة ، كنت قد نقلت حوارا جرى بيني وبين الشاعر يوسف الخطيب تحدثنا فيه عن هذه النظرة بالذات ، وخلصنا الى القول : « ان اكثر شعراء الوطن المحتل خصبا في العطاء الشعري هما محمود درويش وسميح القاسم . الاول هو شاعر البعد « الوطني » من القضية الفلسطينية ، بينما الثاني هو شاعر البعد « القومي » من القضية ذاتها . ولعل هذا السبب هو الذي جعل محمود درويش في دائرة الضوء عندنا اكثر من غيره من شعراء الوطن المحتل ، لان موضوعه وهو « الوطن » قد امده بفنائية عالية ، عالية ، بدا ازاءها القاسم في همومه « القومية » كانه يابس الحنجرة احيانا ،

1 - مقدمة ديوان الوطن المحتل « يوسف الخطيب » .

كان من اشد هموم شعراء الارض المحتلة ، قبل حرب حزيران ، الاهمال المقصود او غير المقصود الذي جوبهوا به من قبل اجهزة الاعلام العربية ، في الوقت الذي كانت السلطات الصهيونية تحاول ان تظهر ، امام الراي العام العالمي المثقف ، على انها واحة الحرية والديموقراطية في منطقة الشرق الاوسط . وليس ادل على ذلك من سماحها لشعراء عرب ، ما زالوا في وطنهم فلسطين ، بنشر شعرهم في الصحف والمجلات والكتب .

وقد ارادت هذه السلطات ان تصطاد عصفورين بحجر واحد : هما محاولة اقتناع هؤلاء الشعراء انهم في وضع افضل بكثير من زملائهم في بعض الاقطار العربية ، ثم المتاجرة بهذه المعاملة على الصعيد العالمي بتصوير العرب وقد ارتضوا بوجود اسرائيل كدولة واعتبار ان لهم صوتا فيها .

ولكن سرعان ما انكشفت هذه اللعبة عندما تسربت الى العالم الخارجي ابناء اضطهاد السكان العرب بالجملة ، ومحاولة ابادتهم نهائيا ، وجعلهم في وضع من التمييز العنصري يكاد يشبه وضع الزوج في الولايات المتحدة الامريكية وبعض انحاء العالم .

في هذا الجو المحوم نشأ جيل جديد من الشعراء العرب اثبت بما لا يقبل الشك ان العنصر العربي لا يمكن بحال مسن الاحوال ان يندمج في العنصر الصهيوني الذي يعتبر نفسه متميزا ، جيل كان تجاوبه مع احداث الوطن العربي ، لا تجاوبه مع الاحداث والتغييرات داخل الارض المحتلة ، هو طابعه المميز .. فقد ثبت ان هذا الجيل ظل مرتبطا بفلسطين كارض عربية خالصة ، وبقية اجزاء الوطن العربي الكبير ومشاكله واوضاعه وقضاياها ارتباط وجود ومصير . وعلى هذا الاساس ناضل ضد اسرائيل كيانا . وناضل ضد اسرائيل كدولة عنصرية فاشية مفتنصة لارض ليست ارضها . وكان هذا النضال على تفاوت في المستويات . الا ان هموم هذا الجيل الشعري كانت نابذة من معين واحد : انه فلسطيني عربي ، وان هناك جيشا من العدو يحتل وطنه على اوسع صور الاحتلال الذي يحاول ان يجتث جذوره من اساسها ليصهره في بوتقة الصهيونية .

من هنا ، كانت تجربة هؤلاء الشعراء فريدة من نوعها ، ومختلفة كليا عن تجربة سائر شعراء الوطن العربي . وكان لا بد اخيرا ان تفرج اجهزة الاعلام العربية عن هذا التراث الشعري الرائع .. وتركه يتطلق الى الجماهير العربية في كل مكان ليذكرها ان البقية الباقية من شعب فلسطين في الارض المحتلة ما زالت تؤمن بارضها وبمستقبلها العربي الاصيل ، وانها تكافح ضد اشد القوى الاستعمارية قسوة ووحشية بالرصاص وبالاضراب والجوع والتشرد . وبالكلمة اخيرا التي هي بداية الرصاص وشعلته التوهجة .

وبعد حرب حزيران ازدادت شعلة هذا الشعر توهجا ، وكانت سببا مباشرة لاتقاد حماس الجماهير العربية وجعلها تندفع لتأييد العمل الفدائي على كافة المستويات من التضحية وتكران الذات .

وقد برز من خلال ذلك شعراء كثيرون ، الا ان ثلاثة منهم ظلوا في

ان أهر الآن اعماق العروبه

ان أهر الجذع

ان شئت ثمارا !!

مثل هذا الفناء الراعش بالامل ، يدل على ارتباط القاسم المخلص
الصادق بمصير أمته . انه يصور ادق تفاصيل الوجه الآخر لمشاعر
المواطنين العرب في الارض المحتلة .

وإذا عدنا الى قصيدة « اصوات من مدن بعيدة » التي اعتمده
الشاعر فيها على الفولكلور العربي . فاقنظف منه مطلع اغنية « يا رائحين
ع حلب حبي معاكم راح » نكتشف هذه الفنائية الشفافة التي صارت
تميزه عن غيره ، اذ ضمنها مأساة العربي وهو يبرز تحت سيف الاحتلال
الاسرائيلي :

يا رائحين الى حلب
معكم حبيبي راح
ليعيد خاتمة الفضب
في جثة السفاح
يا رائحين الى عدن
معكم حبيبي راح
ليعيد لي وجه الوطن
ونهاية الاشباح

الى ان يخاطب بني قومه قائلا :

يجيئون ليلا ، يجيئون
فاستيقظوا استيقظوا
واحرسوا القرية الخائفة
يجيئون ليلا
من القرب .. في مسرب العاصفة
اظافهم من بقايا السلاسل
واسنانهم من شظايا القنابل .

ان هذا التصاعد الميلودرامي ، الذي يتقنه القاسم ايما اتقان ،
يؤكد لنا ان بنيانه الشعري يعتمد اعتمادا كليا على التركيب السيمفوني
ذي الحركات الموسيقية الكاملة ، وخاصة في هذه القصيدة ، التي يبدو
فيها التماوج الموسيقي مسن عنف الحركة وصخبها الى حلمها الى
نومتها ، الى الاين الخافت . فمن صخب الطبول في المقطع السابق ،
الى وتر الكمان الحزين في هذا المقطع :

في الوحل ، يا حبيبي
في الشوك ، في الحفائر
مقطوعة الوريد ، يا حبيبي
مقلوعة الاظافر !
ولم يزل جينك المنارة
في عتمة الضمائر .

ثم يتصاعد اللحن من جديد . في مجموعة الآلات الموسيقية على
نغم حزين وناعم :

قفوا جميعا .. جميعا استعيدوني
فقد خطفت .. وابواب الردى دوني
قفوا جميعا .. فرغم النصل ، في رثي
لا انحل قلبي .. ولا جفت شراييني
دمي عليكم . اذا ما مت مفتربا
اقول : ناديت .. لكن لم يلبوني

انه أسى الشاعر ان يموت مفتربا ووطنه محتل . فالاحتلال يجعل
الانسان في غربة وخوف وهروب ورعب ورقابة دائمة .
ثم يعود اللحن في القصيدة منفردا على آلة واحدة ؛

او كأنه يريد ان يفكر اكثر مما يريد ان يقول شعرا .

والذي يبدو لنا الآن ، من قراءة الشاعرين جيدا ان كلا منهما قد
استعار لنفسه شخصية « تيليماك » الاثريقي في جانب من جوانب
نفسه العذبة المضطربة ، فمحمود درويش هو تيليماك المنتشبت حتى
اسنانه بامه « بنيلوب » التي يجب ان تعني الوطن، اي فلسطين ، بينما
سميح القاسم هو تيليماك الآخر ، المتسكع عند كل الموانئ في انتظار
عودة ابيه « يوليسيز » الذي يجب ان يعني بدوره القوم ، اي الامة ،
وسيلاحظ من يقرأ انتاج الشاعرين جيدا ان كلا منهما قد اقام بنيانه
الشعري كاملا على هذا الاساس او ذلك .

هذه الملاحظات ، كانت قبل صدور هذه المجموعة وكان هذا الشعور
كان يعتل في صدر سميح القاسم ايضا . وسيلحظ القارئ ان يباس
حجرته يكاد يكون مفقودا في قصائده الشعرية الجديدة ، وانه صار
اشد غنائية وتوقا الى عودة « يوليسيز » الذي يعني به الانتصار
العربي . ونظرة القاسم من هذه الناحية اكثر ايجابية من نظرة
الدرويش . ذلك لان الام كثيرا ما تكون مستسلمة لقدرها راضية ،
بينما يصارع الاب هذا القدر ويحاول التقلب عليه . ومهما كانت
النتائج فان ثمة محاولة من خلال هذا الصراع بحثا عن النصر ..
وبالتالي جراحة في مواجهة العدوان :

اي رب

سيبارك النابالم والنصل الممزق لحم شعبي
منذا يبيعك صك غفران
ونابك في ذراعي
يا من تخاف من الشعاع
يا من يمز عليك
نبض الخصب في ارض الجيعان
يا كلب صيد الكرش والقلبون
يا سمسار ناطحة السحاب
يا حارس النفط المدلل
بين احضان الذئاب

هذه الفنائية المرة التي ينطلق فيها سميح القاسم على نحو جديد
تشعرنا ان الطراوة قد عادت الى حجرته . ذلك لان املا جديدا قد
انثق في اعماق الشعب الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال والذي يمثله
خير تمثيل في توفه القومي الاصيل . هذا الامل الوحيد الذي بنسناه
الفلسطينيون انفسهم عندما تسلموا زمام المبادرة واسترجعوا قضيتهم
بعد ان عزلوا عنها كل هذه الاعوام الطويلة . هذا الامل يتمثل في قول
القاسم :

آه يا أمي

وواصلت الاغاني !!

طال - آه - طال يا أمي غنائي

كان مشحونا بنار الانبياء

كان أحيانا ،

وأحيانا .. حزينا كالمساء !

كان - آه - كان يا أمي . غنائي

بعضه ضحل كوجه الصيف ،

والبعض عميق كالشتاء !

فلماذا تغدر الريح انفصالات الاغاني

في ثوان

وتذريها .. فقاعات هواء ؟!

نخلة الساحة

قالت لي .. مرارا مرارا

علمتني نخلة الساحة

يا أمي الحبيبة

مناقشات

ضاق نطاق العدد عن نشر رد بعث به « الراصد العراقي » على رد الأستاذ غالي شكري عليه . وقد وصلنا هذا الرد متأخراً ، وسوف نشره في العدد القادم ، وفيه يكشف « الراصد العراقي » عن هويته باسمه الصريح بعد ان وضعه غالي شكري موضع الشك .

السكة

الموقد

المائدة !

وقصيدة « البيت الاخير في القصيدة » نجد في الكلمات النادرة القليلة صورة حزينة وحادة للحالة التي يعيشها العرب هناك ، ولعلها أيضاً نبوءة الشاعر بمصيره ومصير مجموعته :

صعدوا السلم

اسمع وقع الخطوات المشبوهه

ابصر تحت معاطفهم

عنوان المنزل والفوهه

صعدوا السلم

همسوا

ثانيهم يتقدم

يقف سبابته ، ينقر بابي

.....

.....

ويلك يا هذا .. عكرت الصمت

ويلك .. نفرت الصورة

عن آخر بيت !

وهكذا حين قال آخر كلمة ، وضعوا الاصفاذ في يديه وقادوه الى السجن . اما المجموعة فقد صادروها .

ولا نستطيع هنا ان نتناول كل قصائد المجموعة بالتحليل ، فقصاصم سميح القاسم بريئة وصافية ليست بحاجة الى الدراسة والتحليل . هناك ثغرات ولا يمكن ان ينجو منها اي شاعر ، لكن يبقى سميح القاسم الصق بالارض الفلسطينية وبشعب فلسطين . وشعره هنا ، هو شعر التجربة المريرة ، انه تعبير صادق واصيل عن مأساة شعب برمته محاط بالاسلاك الشائكة والرصاص والسوط ، وبقر البطون وبسر الاعناق وشعر من هذا النوع يحيا وجهها لوجه صرخة شعب ضد الاحتلال الصهيوني ، يقارعه ويلتحم به كل لحظة ، كسل ثانية . شعر فدائسي ومناضل وملتمزم . يخوض المعركة في اتون جحيمها لا يطل عليها من عل او بواسطة المنظار يلتحم فيها بالايدي ويقاوم مقاومة المستعمر من اجل يوم النصر .

ولسوف يجد القاريء عبر رحلة هذه المجموعة ان سميح القاسم ورفاقه شعراء الارض المحتلة اعادوا لنا الامل بالكلمة مثلما اعاد لنا الفدائيون الامل بالرصاص . (٤)

ياسين رفاعية

(٤) مقدمة ديوان « بانتظار طائر الرعد » الذي صدر هذا الاسبوع عن « دار الآداب » .

وحدك الليلة للرقص . . ووحدني للهدوء

وحدك الليلة

غيبني في زحام الضوء والاعلام

حتى الفجر غيبني

ثم تأخذ الحركة في الخفوت رويدا رويدا ، وتتنامم الايدي على الاوتار :

وحدك الليلة

من شارع عبدبئيل (عبد الله)

في زفة هورا

عبر مساحات نزار ومضر

آه . ساحات نزار ومضر

واغفري لي الصمت والقلب الكسيرا

انها ليلة ذكرى .. وعبر

ثم تصمت الحركة فجأة ، وتيبس الايدي على آلتها ، ليجعلنا الشاعر كالمأخوذ في هذا الجو العبق الذي خلفه لنا عبر الصراخ والارق والحزن والسكينة والاستسلام . انها في الحق ، حالة الانسان العربي بالتفصيل لا في فلسطين وحدها بل في مطارح أخرى .

ومن التركيب السيمفوني الموسيقي ينتقل الشاعر الى تركيب آخر . هو الحوار الداخلي بين جزئي الانسان ، وبعبارة ادق التركيب المسرحي في حوار مزدوج لانسان واحد . نلاحظ ذلك في العديد من قصائد المجموعة .. منها مثلا :

« جسدي ينمو على كل الجهات

فاشهدوني

ها أنا انفض اكفاني ، وآتي ! »

السجلات ، كل السجلات

يا سادتي التافهين .

زورت . زورت . زورت .

من سنين !

وانا اتهم

وانا اتقم

للجياذ الحزينة

من تواديتكم

والصكوك الهيجينه !

كان لي .. كان بيت على راييه

كان من صخر هذي الجبال

كان من خشب السند كان

كان .. يا ناس .. كان

واقعا رائعا كالخيال ..

ثم تأتي اللازمة ، « جسدي ينمو على كل الجهات فاشهدوني - ها أنا انفض اكفاني وآتي » التي وضعها الشاعر ضمن قوسين ، وربما هي لشاعر آخر .. لكنه استخدمها هنا على نحو ترداد الكورس اللازمة في المسرحيات الاغريقية وفي المسرحيات الحديثة التي تقلدها :

« جسدي ينمو على كل الجهات

فاشهدوني ..

ها أنا أنفض اكفاني ، وآتي ! »

اغسلوا الدمع عن وجهكم والقباب

يا فراخي الصفار

افتحوا نبعه السر

حلوا جميع الشباك

واستحموا هناك !

اصلحوا الباب والسلم

استرجعوا العززه الشارده

هيئوا النورج